فقد تمتع الكهول منهم بعد مقاطعة النارجيلة من العافية ونضارة الصحة بما لم يتمتعوا به في شبابهم. ومن الجدير بالذكر في هذا المقام ترفُّع للشواب من عذارى ومتزوجات عن الخضوع لهذه العادة الضارَّة. واحقهن بالذكر وجيهة بيروتية أوصلتها قوة النفس الى ان حررت بيتها من عبودية النارجيلة فأحرى بوجهاء الناس ان يتفقوا ويحرروا انفسهم وبيوتهم من هذا الرق فيتبعهم العوام وتستريح الآذان حينئذٍ من اصوات الشكوى من قساوة المحتكرين وليدعوهم يرفعون سعر التنباك ما شاؤوا ولسان الحال ينشدهم "ونراه ارخص ما يكون اذا غلا" اقول وما حصول هذا بالامر المستحيل وان كان دون الوصول اليه مجاهدة الطباع الخاضعة لسلطة العادة. فوربك لو لم يكن بازاء المصدود عن النارجيلة والسيكارة الا لذة التخلص من استبداد المحتكرين لكفى به كفيلاً بالمبادرة الى اتفاق الخواص والعوام على تركها والاعتياض عنها. هذا وليعلم من يقدمون على استئصال هذه العادة ان اقلام الاخباريين والمؤرخين تنشر الثناء عليهم وتبث مدائحهم وتخلد ذكرهم حتى يظفروا بمجد اعاظم الرجال احياء واموانا

سعيد الخوري الشرتوني

عمران دمشق

« معابدها والجامع الاموي »

يرى المتفلسف في عمران المشرق ان اهله قلما يحفلون بتنميق المباني العامة وتزويقها الا ما كان منها تحت اسم الدين كالمعابد والمساجد والتكايا والزوايا وان تكن الديانة الاسلامية مثلاً لا تجيز الزخارف ولا تبيح اقامة مساجد تشغل ذهن الداخل اليها عن العبادة الحقة التي يُراد بها حضور القلب والخضوع والخشوع ولذا عُدَّ من مُحدَثات البدع رواء صنعة بناء المساجد والاسراف في الانفاق عليها وتعدُّدها لغير حاجة ماسة. فقد كان في المدينة صدر الاسلام مسجد جامع واحد فلو فُرض ان دمشق مع كثرة سكانها وما يجيء اليها كل جمعة من سكان القرى يزيد عشرة اضعاف سكان المدينة كان الاحرى ان يكتفى بعشرة مساجد جامعة ولكن هي الاسماء عليها يتهالك الاقوام حرصين وفيها يتنافس البشر غير مأمورين

ومن ثم لا تسل عن اهل الاديان اذا خرب لهم مسجد او حرقت زاوية فقد تقوم قيامتهم كانما تقوّض الدين برمته او أُخذ الملك بامته فيتسابق خاصتهم قبل عامتهم الى إعادة ما دثر

وتجديد ما بلي اذ يُخيل لهم ان مجد الامم متوقف على إظهار شعائر دياناتها وعلى نسبة معابدها يرضى عنها صديقها ويخافها عدوّها

مرّت القرون ودمشق بفضل ما تقدم من الدواعي محتفظة بكيان معابدها لم تُصب بما أُصيب بهِ سائر الآثار من الهدّ والهدم . ولابن عبد الهادي رسالة كتبها في اواخر القرن التاسع اتى فيها على ذكر القسم الاعظم من مساجد دمشق فكانت زهاء الف مسجد . هذا ولم يستقصِ اسماء كثير من المساجد في هذه الحاضرة وضاحيتها مما يناهز خمسمائة قال فناهيك ببلدة يحتوي واديها فقط على زهاء الف وخمسمائة مسجد واما ما هو محيط بعاملتها مما وراء جبالها فهو كثير للغاية

اخنى الدهر على معظم هذه المساجد الآن اما لنزوح السكان من جوارها او لتعطُّل اوقافها فضاعت الفائدة التي بُنيت لاجلها مع ان العقل والشرع يقضيان ببيع المساجد والاستعاضة عنها بمكان آخر فيما اذا قلّ الانتفاع بها او دعت الضرورة لازالتها وما برح الناس ذهاباً مع الاهواء ودفاعاً عن الامناء يفضلون بقاء القديم على قدمهِ كما هو الحال بعدة جوامع في حارتي النصارى واليهود وغيرهما بدمشق وخيرٌ لجامع ان يباع ويبنى بثمنهِ مدرسة من ان يخرب ويمسي مستودعاً للنجس والرجس . وكم من مصلًّى بلا منارة ومنارة بلا مصلًّى . ولطالما استفتي الفقهاء بهذا الشأن فراعى فريق الرأي العام في فتواهُ وحكم آخر بالحق فشفه رأيهُ كما جرى لمّا أُريد بناء المأذنة الملتصقة بالبيعة المريمية في القرن الحادي عشر

في دمشق اليوم ٢٤١ مسجداً وكان بها خمس عشرة كنيسة لاهل الذمة صولحوا عليها كما نُقل عن عمر بن عبد العزيز وذُكر في تاريخ دمشق . وقد عُدّت في العهد الذي اعطاهُ خالد بن الوليد اهل دمشق يوم فتحها . اما عدد الكنائس الآن فسبع عشرة كنيسة لطوائف مختلفة ولليهود كنائس عديدة يكاد يكون لكل غنيّ منهم كنيس خاص في دارهِ والاماكن المشهورة بذلك تربي على عشرة

رأس معابد دمشق ورئيسها وثالث جامع في الاسلام الجامع الاموي المشهور في كل العصور الذي يباهي بهِ اهل هذه الحاضرة غيرهم من سكان البلدان و يعدونهُ من مفاخرهم ومآثرهم اخذاً بكلام الوليد في قولهِ لقد رأيتكم يا اهل دمشق تفتخرون على الناس باربع خصال بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم فاحببت ان يكون مسجدكم الخامس

شرع الوليد في بنائهِ سنة ٨٧ وفُرش بالرخام الابيض المختم بالازرق وحُلي سقفهُ وجدرانهُ بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء خُلط بها من غريب الاصبغة ما يدهش الابصار بوميضهِ

وبصيصه واحتفل من وراء الغاية بتنميقه وتجييده

هذا المسجد عريق في القدم أصيل في اقامة الشعائر الدينية التي عليه كما روى بعض المؤرخين ردح من الزمن وهو لمؤسسيه الصابئة يصلون فيه ثم صار في ايدي اليونانيين ثم لليهود وملوك من عبدة الاوثان ثم للنصارى ثم للمسلمين . قال سيد بليو ان مسجد قرطبة بُني على شكل مسجد دمشق كما ان مساجد الشام وفلسطين ومصر مبنية على شكل الكنائس التي قال المؤرخ اوزيبوس احد اهالي قيصرية في سيرة السلطان قسطنطين انها ذوات الرواش واواوين ونساقي ومساكن للقس بدليل ان في تلك المساجد ما كان بضعة البناؤون من الخافق المزوّق باشكال من حصنا منوّع الالوان . ولعلّ ما هو شائع على الالسنة من ان في هذا الجامع رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام جاء من تسمية المسيحيين له باسم القديس يوحنا الدمشقي تبركاً والاّ فليس في التاريخ ادنى اشارة الى ان يحيى قُتل في دمشق او بيروت او صيداء او نُقل الى احدى هذه المدن

ولما فُتحت دمشق كتب عمر الى عامله ابي عُبيدة كتاب امان واقرّ ما بايدي النصارى اربع عشرة كنيسة واخذ منهم نصف هذه الكنيسة التي كانوا يسمونها كنيسة مار يوحنا بحكم ان البلد فتحهُ خالد بن الوليد من الباب الشرقي بالسيف واخذت النصارى الامان من ابي عبيدة وهو على باب الجابية بالصلح فاختلفوا ثم اتفقوا على ان جعلوا نصف البلد صلحاً ونصفها عنوة فاخذ المسلمون نصف هذه الكنيسة الشرقي فجعلهُ ابو عبيدة مسجداً وكانت قد صارت اليه امارة الشام وكان المسلمون والنصارى يدخلون من باب واحد وهو باب المعبد الاصلي في القبلة فينصرف النصارى الى جهة الغرب والمسلمون الى الشرق وكان لا يستطيع اهل الانجيل ان يجهروا في قراءته بكنائسهم ولا يضربوا بناقوسهم اجلالاً للصحابة فاخذت اصواتهم ترفع في صلواتهم احب الوليد ان يبعدهم عن المسلمين وطفق يجتهد في استصفاء المعبد كلهِ

روى ابن عساكر ان المغيرة بن عبد الملك دخل يوماً على الوليد بن عبد الملك بن مروان فرآهُ مغموماً فقال لهُ يا امير المؤمنين ما سبيلك قال فاعرض عنهُ ثم انهُ عاودهُ فقال يا مغيرة ان المسلمين قد كثروا وقد ضاق بهم المسجد وقد بعثت الى هؤلاء النصارى اصحاب هذه الكنيسة لندخلها الى المسجد فأبوا علينا وقد اقطعتهم قطائع كثيرة وبذلت لهم مالاً فامتنعوا. فقال لهُ المغيرة يا امير المؤمنين لا تغتمّ قد دخل خالد بن الوليد الى دمشق من الباب الشرقي بالسيف ودخل ابو عبيدة بن الجراح من باب الجابية بالامان فاسمهم الى اي موضع بلغ

السيف فان يكن لنا فيهِ حق اخذناهُ وان لم يكن لنا فيهِ حق داريناهم حتى نأخذ باقي الكنيسة فندخلهُ في الجامع. فقال لهُ فرّجت عني فتولّ انت ذلك . قال فتولاهُ فبلغت المسحة الى سوق الرّيحان حتى حاذى من القنطرة الكبيرة اربعة اذرع وكسّر بالذراع الفارسي فاذا باقي الكنيسة قد دخل في المسجد فبعث اليهم فقال هذا حق قد جعلهُ الله عزّ وجلّ لنا لم يصل المسلمون اليهِ في غصب ولا ظلم فقالوا يا امير المؤمنين قد اقطعتنا اربع كنائس وبذلت لنا من المال كذا وكذا فان رأيت ان تتفضل بهِ علينا. فامتنع حتى سألوهُ وطلبوا اليهِ قال فاعطاهم كنيسة حمدين (لعلها حمديس) وكنيسة اخرى جنب سوق الخبز وكنيسة مريم وكنيسة المصلبة

ثم ان الوليد بعث الى المسلمين حتى اجتمعوا لهدم الكنيسة واجتمع النصارى فقال للوليد بعض الاقساء والفأس على كتفهِ وعليهِ قباء سفرجلي وقد شدّ بدور قبائهِ اني اخاف عليك من الشاهد يا امير المؤمنين قال ويلك ما اضع فاسي الاّ في رأس الشاهد وهي صورة في اعلى الكنيسة ثم انهُ صعد فكان الوليد اولّ من وضع فأسهُ في هدم الكنيسة وسارع الناس في هدمها وكبّروا ثلاث تكبيرات

قيل ان اثني عشر الف مرخم اشتغلوا في ترخيم الاموي وان الوليد احتاج الى صناع كثيرة فكتب الى ملك الرومان ان وجّهِ اليّ بمائتي صانع من بلادك فاني أُريد ان ابني مسجداً لم يبنِ من مضى قبلي ولا من يكون بعدي مثلهُ فان انت لم تفعل غزوتك بالجيوش واخربت الكنائس في بلدك وكنيسة بيت المقدس وكنيسة الرها وكنيسة السيدة ومائر آثار الروم في بلدي. فاراد ملك الروم ان يثنيهُ عن بنائهِ ويضعف عزمهُ فكتب اليهِ لئن كان ابوك فهمها فاغفلها فانها لوصمة عليهِ ولئن كنت فهمتها وغيّبت عن ابيك فانها لوصمة عليك وانا موجهٌ اليك ما سألتهُ فاراد ان يعمل لهُ جواباً فجلس لهُ عقلاء الرجال في خطبة المسجد يفكرون في ذلك فدخل عليهم الفرزدق فقال ما بال الناس اراهم مجتمعين حلقاً فقيل لهُ السبب فقال يا امير المؤمنين انت جعلت اخاك سليمان القائم بامر العمارة والجواب بنص القرآن ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً . فسرّي بذلك عنهم

ولما عمر الوليد الجامع قال لهُ بكر اولادهِ يا ابتِ اتعبتَ من يأتي بعدك في طين اسطخهِ فقال يا بنيّ نرصفهُ فطلب الرصاص من سائر الآفاق فكل اتى بما عندهُ واتت كورة الاردن اكثرهم في ذلك وطلبوا الرصاص بكل ممكن حتى في النواويس العادية فلما نفدت مظانهُ حار الوليد في صيور امرهِ فدُلّ على امرأة من بنات اكابر دمشق ان عندها من الرصاص ما يكفي القطعة الباقية فارسل الوليد اليها يسألها بيعهُ فابت فاضعف لها ثمنهُ فابت فاعطوها عوضهُ

قصديرًا ثم حديدًا ثم فولاذًا ثم نحاسًا وما زالت تأبى فقال لهُ ولدهُ اكملهُ بفضة فقال يا بنيَّ بعدنا تؤخذ الفضة وننسب الى العجز عن اكمالهِ فقال اعطوها زنتهُ ذهبًا فرضيت وباعوهُ فلما اتمهُ ارسلت المرأة اليهِ المال وقالت ليعلم امير المؤمنين اسعدهُ الله انني خرجت عن هذا الرصاص لله تعالى وانما تمسكت على امير المؤمنين حتى اعلم امرهُ هل يأخذ ذلك مني غصبًا ويقهرني عليهِ ام اجتهادهُ لله تعالى يوصلني الى ما اريد في ثمنهِ وقد علمت ان همتهُ ومرادهُ رضا الله ورسولهِ. فلما وصل المال والقاصد الى الوليد عجب من ذلك وسأل هل هي عازبة ام متزوجة فقيل بل عازبة فتزوجها وعمرت بالمال المنارة التي على باب السلسلة ورصعتها بالمعادن فسميت مأذنة العروس . رواها ابن عساكر وتابعهُ عليها غير واحدٍ من المؤرخين

وبالغ مؤرخو العرب في كثرة ما أُنفق على الجامع الاموي وما اظن ما قالوهُ في الواقع ببعيد فعمر بن مهاجر وكان على بيت المال للوليد بن عبد الملك انهم حسبوا ما أُنفق على الكرمة التي في قبلة المسجد فكان سبعين الف دينار وحسبوا ما أُنفق عليهِ كلهِ فكان اربعمائة صندوق كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار. قال ابو قصي واتى الوليد حرسيٌّ فقال يا امير المؤمنين ان اهل دمشق يتحدثون بانك انفقت الاموال في غير حقها فنادى الصلاة جامعة وخطب الناس فقال الا انهُ بلغني حرمي انكم تقولون ان الوليد انفق المال في غير حقها الا يا عمر بن مهاجر قم فاحضر ما قبلك من الاموال من بيت المال قال فاتت البغال تدخل بالمال ونصبتُ في القبة على الانطاع حتى لم يُبصر من بالشمال من في القبلة ولا من في القبلة من في الشمال ونصبت الموازين فوزنت الاموال فقال لصاحب الديوان احضر من قبلك ممن يأخذ رزقنا فوجدوا ثلثمائة الف الف في جميع الامصار وحسبوا ما يصيبهم فوجدوا عنده ما يرزقهم ثلاث سنين ففرح الناس وكبَّروا

وكذلك بالغ السياح في وصف اعاجيبهِ بما يوهم ان ما قالوهُ اقرب الى الباطل منهُ الى الحق خصوصًا عند شرقيّ لم يزر بلاد الفرنجة لهذا العهد ولم يرَ غير بلادهِ المنحطة فقد روى ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ في وصفهِ ان طولهُ من الغرب الى الشرق مائتا خطوة وهي ثلثمائة ذراع وذرعهُ في السعة من القبلة الى الشمال مائة وخمس وثلاثون خطوة وهي مائتا ذراع وهو تكسير المسجد النبوي غير ان طولهُ من القبلة الى الشمال . وبلاطاتهُ المتصلة بالقبلة ثلاث مستطيلة من المشرق الى المغرب سعة كل بلاطة منها ثمان عشرة خطوة وقامت البلاطات على ثمانية وستين عمودًا منها ثمانية ارجل تتخللها واثنتان مرخمة ملصقة بالجدار الذي بلي الصخرة واربعة ارجل مرخمة أبدع ترخيم مرصعة بفصوص من الرخام ملونة قد نظمت خواتيم وصورت

محاريب واشكالاً غريبة قائمة في البلاط الوسط دور كل رجل منها اثنان وسبعون شبراً و يستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته سعتهُ عشر خطاً وعدد قوائمهِ سبع واربعون منها اربعة عشر رجلاً والباقي سوارٍ وسقف الجامع كلهِ من خارج الواح رصاص واعظم ما فيهِ قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وهي سامية في الهواء عظيمة الاستدارة وقد استقل بها هيكل عظيم هو عماد لها يتصل من المحراب الى الصحن والقبة قد اغصَّت الهواء فاذا استقبلتها رأيت مرأى هائلاً ومن اي جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء كانها معلقة في الجوّ وعدد شماساتها الزجاجية المذهبة

(فناء الجامع الاموي من الشرق الى الغرب)

الملونة اربع وسبعون فاذا قابلتها الشمس واتصل شعاعها بها انعكس الشعاع الى كل لون منها واتصل ذلك بالجدار القبلي ويتصل بالابصار منها اشعة ملوّنة هائلة لا تبلغ العبارة تصوّرها

ومحرابهُ من اعجب المحاريب الاسلامية حسناً وغرابة صنعة يتقد ذهباً كلهُ قد قامت في وسطهِ محاريب صغار متصلة بجدارهِ تحفّهُ سوريات مفتولات فتل الاسورة فانها مخروطة بعضها احمر كأنها مرجان لم يرَ شيء اجمل منها وفيها ثلاث مقاصير مقصورة معاوية وهي اول مقصورة وضعت في الاسلام . ثم ذكر في فناء الجامع عجائب من الاقبية والابنية والصوامع الثلاث والمياه المدبرة فيهِ ما يطول وصفهُ . وللمسجد اربعة ابواب باب قبلي يعرف بباب الزيادة وباب شمالي ويُعرف بباب الناظمين — الناطفين — وباب غربي يعرف بباب البريد وباب شرقي

يعرف بباب جيرون وهو اعظمها ولهُ وللغربي دهاليز متسعة يُفضي كل دهليز منها الى باب عظيم كانت كلها مداخل للكنيسة فبقيت على حالها

قال وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذي امامهُ شبهُ غرفة بها هيئة طاق كبير مستدير فيهِ طيقان من صفر وقد فتحت ابوابًا صغارًا على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيرًا هندسيًّا فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازيين من صفر قائمين على طاستين من صفر مثقوبتين فتبصر البازيين يمدان عنقيهما للصنجتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تخيلهُ الاوهام سحرًا فعند وقوعهما يسمع لهما دوي فيعودان من الانقاب الى داخل الجدار الى الغرفة وينغلق الباب تلك الساعة بلوح اصفر فلا يزال كذلك حتى تنقضي الساعات فتنغلق الابواب كلها ثم تعود الى حالاتها الاول ولها بالليل تدبير آخر وذلك ان في القوس المنعطف على الطيقان المذكورة اثني عشرة دائرة من النحاس مخرّمة في كل دائرة زجاجة وخلف الزجاجة مصباح يدور بهِ الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت عمّ الزجاجة ضوء المصباح وافاض على الدائرة شعاعًا فلاحت دائرة مجمرة ثم ينتقل الى الاخرى حتى تنقضي ساعات الليل . وقد وكل بها من يدبّر شأنها فيهيد فتح الابواب و يسرح الصنج الى موضعهِ وهي التي تسمى الميقاتة

وروى ابن عساكر ان المسلمين لما دخلوا دمشق وقت فتحها كان اسم باب الجامع القبلي باب الساعات لانهُ كان هناك ساعات يُعلم بها ما يمضي من النهار عليها صور عصافير وحية وغراب فاذا تمت الساعة خرجت الحية وصاحت العصافير وصاح الغراب وسقطت حصاة في الطشت . وانهُ كان في الجامع قبل حريقهِ طلسمات لسائر الحشرات معلقة في السقف فوق البطاين فلما احترقت الطلسمات وجدت وكان في السقف طلاسم عملتها الحكماء مما يلي الحائط القبلي فمنها طلسم للسنونو لا تدخلهُ ولا تعشش فيهِ ومنها لا يدخلهُ غراب ولا فار ولا حيات ولا عقارب ولا عنكبوت ولا يركبهُ غبار ولا وسخ ولا غير ذلك

وعلى اثر هذه الساعات وهذه الطلاسم يجدر ذكر البسيط الذي اقامهُ الفلكي الشهير ابن الشاطر المتوفي سنة ٧٧٧ موقت هذا الجامع والبسيط اختراعهُ قديم ينسب لليونان الاَّ ان العرب زادوا عليهِ كثيرًا وهو عبارة عن حجر مستطيل تعرف فيهِ بخطوطهِ واشكال الشمس في اي برج هي وفي اي درجة من ذلك البرج و يُعرف فيهِ الماضي من الشمس والباقي للزوال والماضي من الزوال ايضًا والباقي للغروب ويقال لهُ الدائر وفضل الدائر والماضي من طلوع الفجر ويعلم منهُ قوس العصر والباقي لمغيب الشفق والباقي الى الفجر الآتي وهذا الذي زادهُ الاستاذ

محمد الطنطاوي على ابن الشاطر ورسم فيهِ شكلاً معيناً تُعلم منهُ الطالع والمطالع

فقادم العهد على بسيط ابن الشاطر فوقع فيهِ بعض فروق في الاوقات فطلب متولي الجامع وغيرهُ من العلماء الى الشيخ الطنطاوي سنة ١٢٩٤ ان يصلح ما وقع فيهِ فاصلحهُ فلما ارادوا وضعهُ في مكانهِ وقع الحجر وانشق شطرين فسمعوا ذلك الى الشيخ لحضور احد تلامذتهِ اذ ذاك فاضطر الشيخ ان يبريء نفسهُ وراح الى دارهِ يصرف حولين كاملين ليعمل بسيطاً يحاكي بهِ بسيط ابن الشاطر فحملهُ على قلة الكتب لديهِ وفقدان ملكة هذا الفن لكن معاصر بهِ والمعاصرة كما قيل حرمان ابوا الاَّ ان يتنقَّصوهُ ويضيعوا اتعابهُ شأنهم مع غيرهِ من رجال الجدّ فاشاعوا بين العامة ان بسيطهُ لا يصلح للتوقيت وها هو الآن ملقى في منارة العروس يكاد لا يُنظر اليهِ يرقب الزمن ليظهر ويعمل بهِ ويقدر فضل صاحبهِ . وقد عمل ايضاً بسيطاً ثانياً على الافق المرئي وضعهُ في جامع الدقاق بالميدان قرب باب دمشق الجنوبي

ولا عجب اذا لقي الطنطاوي ما لقي واصبح غير مقدور قدرهُ فقد امتحن ابن الشاطر في القرن الثامن بمثل ما امتحن بهِ ولم تعرف له فضيلتهُ الاَّ بعد موتهِ باعوام دمشق غامطتهُ حقهُ وآثارهُ تنشر في البلاد ولسان حالهِ يقول

لا عيب لي غير اني من دياركم وزامر الحيّ لا تُطرب مزامرهُ

نقل صاحب محاسن الشام ان ارض الجامع كانت مفروشة بالفصوص المزمكة بالذهب المسماة بالفسيفساء وان الرخام كان في جدرانهِ سبع وزرات ومن فوقهِ صفات البلاد وما فيها من العجائب وان الكعبة المشرَّفة وضع صفاتها فوق المحراب ثم فوق البلاد يميناً وشمالاً وما فيها من الاشجار المثمرة والمزهرة وغير ذلك وجعل سلاسل المصابيح من نحاس محلى بالذهب ورتب لهُ من الشموع ما يوقد منهُ في اماكن مختصة واصطنع في صحنهِ مجامر على اعمدة يرسم البخور ووكل بذلك خدمة لا يفترون ليلاً ولا نهاراً حتى كان يشم روائح البخور مسيرة فرسخين (كذا) وسبك لهُ سرجاً من نحاس كل سراج يوضع فيهِ قنطار زيت وجعل على كل باب سراجاً وجعل في محراب الصحابة حجراً من بلور وقيل بل درة لا قيمة لها وكانت اذا أُطفئت المصابيح يقوم نورها مكانها (كذا) وان الامين بن الرشيد ارسل الى صاحب دمشق ان يسيرها اليهِ فارسلها وقيل انهُ لما رآها أمر بردّها قال ابن عساكر ثم ذهبت الايام بعد ذلك وجعل مكانهُ برنية من رخام وقد رأيتها ثم انكسرت بعد مدة فلم يوضع مكانها شيء

وروى شيخ الربوة انهُ كان يحمل من زيت نابلس الى جامع بني امية في كل سنة الف قنطار بالدمشقي وقال ايضاً انهُ يوقد فيهِ ليلة النصف من شعبان اثنا عشر الف قنديل بخمسين

قنطاراً من الزيت غير ما يوقد بالمدارس والمساجد والتربة والخوانق والربط والمارستانات . وذكر ابن بطوطة ان فوائد مستغلات الجامع ومجاييه نحو خمسة وعشرين الف دينار ذهباً في كل سنة وذكر ايضاً انهُ كان بهذا الجامع حلقات التدريس في فنون العلم والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرتفعة وقراء القرآن يقرأون بالاصوات الحسنة صباحاً ومساء وبهِ جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم الى سارية من سواري المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم وهم لا يكتبون القرآن في الالواح تنزيهاً لهُ وانما يأخذونهُ تلقيناً ومعلم الخط غير معلم القرآن

هذا اصل الجامع وبعض ما كان فيهِ من العجائب وفي تواريخ دمشق ان النصارى رفعوا الى عمر بن عبد العزيز في خلافتهِ ما يدهم من عهد ابي عبيدة الجراح من ان كنائسهم لا تهدم ولا تسكن وان الوليد اخذ كنيستهم بغير حق قهراً فلما رأى عمر ذلك منهم دفع لهم مالاً يرضيهم بهِ حتى بلغ مائة الف فابوا فكتب عمر الى محمد بن سويد الفهري ان يدفع اليهم كنيستهم او يرضيهم في ذلك فلما وصل كتاب عمر الى دمشق اعظم الناس ذلك وفيهم يومئذٍ بقية من اهل الفقهِ فشاورهم محمد بن سويد فقالوا هذا امر عظيم ندفع اليهم مسجدنا وقد اذنَّا فيهِ بالصلاة وجمعنا فيهِ يهدم ويعاد كنيسة فقال رجل منهم هنا مسئلة لهم كنائس عظام حول مدينتنا وهي دير مران والكنيسة يباب توما وغيرها من الكنائس ان احبوا ان نعطيهم كنيستهم فلا يبقوا حول مدينة دمشق ولا بالغوطة كنيسة الاَّ هدمت او نبقي لهم جميع كنائسهم ويتركوا هذه ونسجل لهم بذلك سجلاً فدعاهم محمد بن سويد وعرض عليهم ذلك فقالوا امهلونا ننظر في امرنا فتركهم ثلاثاً وطلبهم فقالوا نحن نأخذ الذي عرضتهُ علينا ونكتب الى الخليفة اننا قد رضينا بذلك ويسجل لنا الخليفة من قبلهِ سجلاً منشوراً بأمان على ما بدمشق والغوطة من كنيسة ان تهدم او تسكن قالوا نعم فكتب الى عمر بن عبد العزيز بذلك فسرَّهُ وسجل لهم بذلك واشهد شهوداً

روى ابن عساكر عن محمد بن مهاجر قال سمعت عُمر بن عبد العزيز ذكر مسجد دمشق فقال رأيت اموالاً أُنفقت في غير محلها فانا مستدرك ما استدركت منها فرادُّهُ الى بيت المال اعمد الى هذه الفسيفساء وهو النقش المفصص والرخام فاقلعهُ وانزع تلك السلاسل واجعل مكانها حبالاً وانزع تلك البطاين فابيع جميع ذلك وادخلهُ بيت المال فبلغ اهل دمشق فاشتد عليهم فخرج اليهِ اشرافهم فيهم خالد العشري فقال لهم خالد ائذنوا لي حتى اكون انا المتكلم فاذنوا لهُ فلما اتوا دير سمعان (مصيف عمر بن عبد العزيز قرب مدينة حمص وبهِ قبرهُ معروف

الى الآن) استأذنوا على عمر فاذن لهم فلما دخلوا سلموا عليهِ فقال لهُ خالد يا امير المؤمنين بلغنا انك هممت في مسجدنا بكذا وكذا قال نعم فقال لهُ والله ما ذلك لك يا امير المؤمنين فقال عمر لمن هو لأُمك الكافرة وغضب عمر ثم قال صدقت فما قولك ما ذاك لي قال لانا كنا معشر اهل الشام واخواننا من اهل مصر واخواننا من اهل العراق نغزو ففرض الرجل منا على نفسهِ ان يحمل من ارض الروم قفيزًا بالصغير من فسيفساء وهي الفصوص او ذراع في ذراع من رخام فحملهُ اهل العراق واهل حلب الى حلب ونستأجر على ما حملوا الى دمشق وتحمل اهل دمشق وما وراءهم الى دمشق فذاك قولي ما ذاك لك فسكت عمر

قال ثم جاءهُ بريدي من والي مصر يخبرهُ ان قاربًا ورد عليهِ من رومية فيهِ عشرة من الروم عليهم رجل مقدم يريدون الوفود الى امير المؤمنين فكتب اليهِ ان وجههم اليَّ ووجّه معهم عشرة من المسلمين عليهم رجل مقدم كاهم يحسن الرومية ولا تعلموهم بذلك حتى يحملوا اليَّ كلامهم فساروا حتى نزلوا دمشق خارج باب البريد فسأل الروم رئيس العشرة من المسلمين ان يستأذن لهم في دخول المسجد الجامع فاذن لهم فمروا في الصحن حتى دخلوا من الباب الذي يواجههُ القبلة فكان اول ما استقبلوا المقام ثم رفعوا رؤوسهم الى القبة فخر رئيسهم مغشيًا عليهِ فحمل الى منزلهِ فاقام ما شاء الله ان يقيم ثم افاق فقالوا لهُ بالرومية ما قصتك صحبتنا في طريقنا هذه ما انكرنا منك شيئًا فما الذي عرض لك حين دخلت هذا المسجد فقال لانَّا معشر اهل رومية نتحدث ان بقاء العرب قليل فلما رأيت ما بنوا علمت ان لهم مدة سيبلغونها فلذلك اصابني الذي رأيتم فلما قدموا على عمر اخبروهُ بما سمعوا منهُ فقال عمر اذا كان مسجد دمشق غيظًا على الكفار دعوهُ على حالهِ

وظلَّ الجامع قرونًا زاهيًا زاهرًا الى ان احترق الحريق الاول سنة ٤٦١ وبها ذهبت محاسنهُ وانقضت ايام ازدهائهِ وعجائبهِ . وثانيهِ سنة ٧٤٠ كان الاصل فيهِ من النصارى بدمشق كما قال ابن مفلح واشتهر ذلك عنهم وكتب عليهم محضر بهِ وضُربت اعناقهم ثم حرقوا بالنار وزاد صاحب محاسن الشام ان مأذنة عيسى نُقضت وجُددت من اموال النصارى لكونهم اتهموا بحريقها باقرار بعضهم واقيمت على احسن الاشكال وهذا الحريق عمَّ جميع الجامع وما حولهُ من الدهستاني والرواقات الشرقية والمباني الشرقية وذهبت اموال الناس . وثالث حريق احرق الدهستان وسوق الوراقين والساعات ونصف المعزبة من شرقي الجامع الى بيت المقصورة سنة ٧٩٥ ايام الظاهر برقوق ثم اعيد الى ما كان عليهِ . ورابع حريق جرى سنة ٨٠٣ عند حضور تيمور لنك حرق جميعهُ واحترق المصحف العثماني الموضوع بالمقصورة وجميع ما كان بهِ من

مصاحف وربعات وكتب علم وغيرها واستمر الجامع خراباً الى ولاية شيخ الخاصكي نيابة الشام في شهور سنة ٨٠٥ فشرع في عمارته واعيد الى قريب ما كان عليه وخامسها سنة ٨٨٤

ولم اعثر على تاريخ يدل على خراب الجامع او حرقه بعد هذا التاريخ الا ما كان من زلازل سنة ١١٧٣ فان قبة النسر والرواق الشمالي خربا اذ ذاك واعيد بناؤها من قابل ثم رمم في تواريخ عدة حتى اذا كانت سنة ١٣١٠ (ربيع الثاني) سرى النار الى رصاص سطوحه فالتهمها كلها في اقل من ثلاث ساعات ولم يتمكن من اطفائها لعلو السقوف وعدم وجود مضخات قوي بالمقصود فدثر آخر ما بقي من آثاره واثاثه ورياشه وبعض قطع الفسيفساء التي بقيت منذ قرون ولم تعمل بها الكوارث واخص ما حرق بها مصحف كبير مكتوب بالخط الكوفي الجميل على رق الغزال كان يقال انه عثماني ومهما يكن من امره فان عنقه يدل على انه من المصاحف التي كتبت في الصدر الاول . وفقد هذا المصحف عند العقلاء اصعب من احتراق الجامع

وشرع من قابل باعادة بناء الجامع بمال جمع من اعانات الدماشقة بالتخجيل والتجييه واحياناً بالترغيب والترهيب ومن سكان القرى المجاورة بالجبر والقهر كما هو الشأن في كل اعانة يُراد جمعها من الاهلين وما اكثر انواعها في هذه السنين . ولما رأوا ان هذا الامر يطول وهذه الهبات لا تعمر الجامع اخذوا منذ خمس سنين يتقاضون كل سنة مبلغ ٤٥٠٠ ليرة عثمانية من ضريبة اللحم التي كانت تستعين بها البلدية على اصلاح بعض الطرق والشوارع ولما خربت طرق المدينة نجز في العام الماضي بناء شطر الحرم الشرقي والهمة مبذولة لبناء الشطر الغربي وسينجز بعد سنة . وقد اعيد كل شيء الى حاله السابق

وكان القوم يذهبون الى ان ايجاد سوار من الحجر كالسواري المحترقة من رابع المستحيلات الا ان الامر جاء على عكس ما توهموا فان احد ارباب الصنائع الدماشقة ممن بلغ منزلة الاختراع فيها واسمه عبد الغني الحموي صنع عجلة كبيرة لجر الاثقال والاحجار وآلة لقطع الحجر فاحضرت السواري من مقاطع المزة وقطعنا احسن من القديمة

واتصل بي ان ما أُنفق وينفق على اعادة الجامع الى سابق رونقه يبلغ نحو اربعين الف ليرة أُخذت كما مرَّ بك من اموال لا تصلح لبناء المساجد في عقل ولا نقل . كنت يوماً اتحدث وصديقاً لي في امر هذا المسجد فقال لي تالله لو نُشر النووي وابن تيمية وابن الصلاح وغيرهم من علماء دمشق العاملين لافتوا بتحريم الصلاة فيه لما يرون من اتخاذ هذه الزخارف الباطلة بمال يجبى بغير حق وان الاسلام الذي جاء ليأتي على الوثنية عاد الناس اليها في القرون المتأخرة بل تجلت بابهى مظاهرها وتبرقعت ببرقع ديني واتسمت بعلائم القربى فقد صرف على المحراب فقط نحو سبعمائة ليرة

نعم دلّ ذلك على ان في البلاد بقايا صنائع كالنحاتة والنجارة والنقش والترخيم الاّ ان هذه العناية هي احرى بان تصرف على ما يجدي فائدة تحمد لا على ما يشبهُ التماثيل والهياكل والنصب في محل التوحيد ولو اقتصر على الضروري من البناء لاقتصدت اموال طائلة كان يتأتى ان تشيد بها مدرسة يتخلص الناس بها من الجهالة الجهلاء ولكن المشاوقة لا يعتقدون النفع فيقتتلون في نيله الاّ فيما كان منهُ تحت ستار الدين وباسم الآخرة

حقن الادوية في الاوردة

الطرق المعروفة حتى الآن التي تجتازها الادوية لتصل الى الدم خمسة وهي

اولاً طريق القناة الهضمية ولهُ مدخلان الفم والمستقيم فتجتاز الادوية المدخل الاول إما شرباً متى كانت سائلةً او ازدراداً متى كانت جامدةً ولا تجتاز المدخل الثاني الاّ سائلةً حقناً ومتى انتهت الادوية الى القناة الهضمية تمتصها هذه وتدخلها الدورة الدموية

ثانياً طريق الجلد وذلك بان يُدلك الجلد بالمراهم والسوائل الدوائية اللزجة والصبغات وما شاكلها التي تلتصق بالجلد فيمتصها

ثالثاً طريق الجهاز التنفسي الذي تجتازهُ ابخرة بعض الادوية استنشاقاً كابخرة الزئبق مثلاً في علاج الزهري

رابعاً طريق النسيج الخلوي الجلدي

خامساً طريق العضلات

وهذان الطريقان الاخيران تجتازها الادوية سائلةً حقناً فتمتصها الاوعية اللمفاوية التي تحت الجلد وفي العضلات وتحملها العصارة اللمفاوية الى القلب

وقد اهتدى الدكتور ابادي (Abadie) الرمدي الفرنساوي الشهير الى طريق سادس وهو طريق الاوردة الذي نريد الكلام عنهُ في مقالتنا هذه

فطن الدكتور ابادي منذ سنين الى امكان حقن محاليل الادوية في الاوردة غير انهُ ما زال محجماً عن الاقدام على ذلك متردداً خوفاً من سوء العاقبة حتى اتاهُ منذ اثنتي عشرة سنة مريض مصابٌ بالتهاب قرحي زهري حادٍ يستدعي سرعة العلاج فكف عن احجامهِ وترددهِ ورأى ان يخرج ما في حيّز فكرهِ الى حيّز العمل وطهّر حقنة برافاس وحقن في الوريد القاعدي بنصف ملئها من محلولٍ معقّمٍ من سيانور الزئبق بمعدل ١/١٠٠٠